القسم الأول: نقد الاقتصاد التقليدي

يطرح الاقتصاد الإسلامي نفسه كبرنامج بحث بديل عن برنامج البحث في الاقتصاد التقليدي، ومن هنا فإن الترتيب المنطقي للأمور يحتم علينا الكشف عن أوجه القصور المنهجي الكامنة في علم الاقتصاد التقليدي قبل عرض الأسس المنهجية للبحث في الاقتصاد الإسلامي.

المبحث الأول: الاستعارتان المجازيتان

هناك صورتان مجازيتان قامت عليهما العقلانية الغربية برمتها، وهما مجاز الآلة، ومجاز الكائن الحي. الصورة المجازية الأولى تصور العالم على هيئة آلة تتحرك بشكل رتيب ومكرر، أما الثانية فتصور العالم على هيئة كائن حي ينمو مع الزمن وربما يتحرك، وقد شكلت هاتان الصورتان النموذج المعرفي الكامن الذي تدور في فلكه كل العلوم الاجتماعية، ومنها علم الاقتصاد كما سنتناوله الآن.

المطلب الأول: مجاز الآلة النيوتوني

إذا سايرنا التيار الأساسي في التأريخ لعلم الاقتصاد، فإن تاريخ نشر كتاب ثروة الأمم (The Wealth of Nations) لآدم سميث (Adam Smith) سنة 1776 هو بداية التقويم الذي سيسير عليه علم الاقتصاد كمبحث مستقل عن المعارف الأخرى. هناك إجماع بين الاقتصاديين أن آدم سميث حسب عبارة جيفونز (Jevons) هو "أب علم الاقتصاد". وفي هذا الإطار، فإن الاقتصاد النيوكلاسيكي الحديث أو التيار السائد في علم الاقتصاد يكتمل من خلال الزخم المنهجي الذي أدخله آدم سميث لهذا المجال المعرفي. علاوة على ذلك يسلم الاقتصاديون بأن سميث استخدم طريقة نيوتن الآلية الميكانيكية في الاقتصاد السياسي بشكل واضح[1].

كان آدم سميث حالة لافتة للنظر لأنه وظف بشكل جذري أنماطا مختلفة من التفكير في أجزاء مختلفة من أعماله. في الكتابين الأول والثاني من ثروة الأمم استخدم سميث معالجة ليبرالية للمنهجية

[1] - Deborah A. Redman, **The Rise of Political Economy as a Science: Methodology and the Classical Economists.** Massachusetts: Massachusetts Institute of Technology, 1997, p 207.

الإحصائية المقارنة وهي معالجة رافقت ريكاردو أيضا في عمله، بينما كان الكتاب الثالث والرابع والخامس من ثروة الأمم وكذا غالبية كتابه "نظرية الحواس الأخلاقية"(The Theory of Moral Sentiments)، يضرب الأمثلة عن مختلف المناهج التي تجتمع تحت اسم المدرسة التاريخية الأسكتلندية[2].

ليس من السهل توصيف مناهج المدرسة التاريخية الأسكتلندية، فلا آدم سميث ولا غيره من أعضاء المدرسة دونوا بشكل مسهب في هذا الموضوع، وإن كان دافيد هيوم (David Hume) قد أشار إلى ملامحها المنهجية العامة حيث قال: " يشعر الناس اليوم بشغفهم إلى الفرضية والنظم في الفلسفة الطبيعية، ولن يستمعوا منذ الآن إلى أي حجة إلا الحجة المستلهمة من التجربة. وينبغي عليهم قضاء كامل الوقت في مثل هذا الإصلاح للأبحاث الأخلاقية"[3].

ومن هذا المنطلق كان الاقتصاديون الكلاسيكيون الإنجليز يظهرون من جهة، اعتقادا راسخا في منهج فرانسيس باكون المطبق في علوم الطبيعة، مستريحين إلى التفاعل بين الأساليب الواضحة للإنتاج الاقتصادي وبعض المبادئ الثابتة للسلوك البشري، ومن جهة أخرى يبدون التزاما عميقا بالبساطة وأناقة الأسلوب كمعيار كاف للتفسير في كل من العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية[4].

ساهم آدم سميث ببحث واسع في فلسفة العلم عنوانه" المبادئ التي تقود وتوجه الأبحاث الفلسفية؛ موضحة بتاريخ علم الفلك" (The Principles which Lead and Direct Philosophical Enquiries; Illustrated by the History of Astronomy)، كتبه سنة 1750، لكن لم ينشر إلا بعد وفاته سنة 1799، أي أنه كتب لستين سنة فحسب بعد كتاب نيوتن (Principia). ولأن التيار الأساسي في علم الاقتصاد يعتمد عقيدة المنهج العلمي كما تطبق في الفيزياء، فإن الربط بين آدم سميث ونيوتن يؤخذ كمسلمة لتعزيز الادعاء بأن الاقتصاد السائد الحديث هو في تواصل مع التقليد المنهجي لصاحب ثروة الأمم[5].

---

[2] - Mark Blaug, op. cit, p 52.

[3] - David Hume, **An Enquiry Concerning the Principles of Morals**. Indianapolis: Hackett Publishing, 1983, p16.

[4] - James Bell, **Influence of Physical Research on Mental Philosophy**. London: Adam and Charles Black, 1839, p 28.

[5] - Farhad Rassekh, **Four Central Theories of the Market Economy: Conception, Evolution and Application.** New York and Oxon: Routledge, 2017, p17.

تم جمع الدعم لقبول هذا الرأي عموما من إطراء سميث على مفهوم نيوتن للفلسفة. هذه القناعة المشتركة بين الاقتصاديين تدعم بعض التفسيرات لـــ "اليد الخفية" والمقصد من وراء الفصل المثير للجدل من كتاب ثروة الأمم وهو الفصل السابع من الكتاب الأول هو تعميد آدم سميث ليكون رائدا إن لم يكن مؤسسا لنظريات التوازن الاقتصادي العام. وصف سميث منهج نيوتن كواحد من القواعد التي نتبعها، مانحا الدور المحوري للانسجام مع البشر الآخرين في كتابه "نظرية المشاعر الأخلاقية، ولسلوك المصلحة الخاصة في كتاب "ثروة الأمم"، وكلا الكتابين نظر إليهما كمحاولة متعمدة من سميث لتطبيق منهج نيوتن أولا في الأخلاق ثم في الاقتصاد، يقول سكينر (Skinner): " لا يوجد أدنى شك في أن علم سميث تم تصويره في الأصل على صورة الفيزياء النيوتونية"[6].

استخدم الاقتصاديون منذ آدم سميث مصطلحات تدعم الصورة المجازية الآلية الميكانيكية عن العالم الاقتصادي، مثل مصطلح "الطبيعة" أو "طبيعيا" دون الإشارة المباشرة إلى نيوتن، مع أن لفظ الطبيعة وما اشتق منها استخدم بمعان مختلفة في القرن الثامن عشر، من بينها معنيان اثنان ارتبطا بالمجاز الكامن للتفسير الآلي النيوتوني، أحيانا تشير الكلمة إلى مجمل الظواهر أو بعض الجوانب الخاصة بها (Natura naturata) كما استعملها الكتاب المدرسيون (Scholastics) في وقت لاحق، وفي أحيان أخرى تتضمن معنى الفعل الإلهي (Action of Providence)، أو "مبدأ كل الأشياء"، أو فعل الله كطبيعة طابعة (Natura naturans)، وهكذا يكون "قانون الطبيعة" بيانًا بالأنظمة المنتظمة للظواهر مثل القوانين النيوتونية للتنسيق[7].

كان ينظر إلى هذه الانتظامات في العالم المادي على أنها نتيجة مرسوم إلهي أو "طبيعة" بالمعنى الثاني، لهذا تم تحويل ضمنيّة التناسق والديمومة بسهولة إلى قوانين أخلاقية يفرضها الله على جميع الناس، وأصبح دور العلماء هو اكتشاف هذه القوانين في ضوء العقل. هذا الاستخدام المزدوج لمصطلح "القانون الطبيعي" لم يكن غريباً على كتاب القرن الثامن عشر[8]، ورغم كل هذا فإن نظرة سميث كانت ساذجة

---

[6] - Andrew Skinner, '' Adam Smith, science and the role of the imagination''. In Hume and the Enlightenment. W. B. Todd (ed.). Edinburgh: Edinburgh University Press, p 182.

[7] - Henry J. Bittermann, '' Adam Smith's Empiricism and the Law of Nature'', Journal of Political Economy, Vol. 48, No. 5 (Oct., 1940), p 703.

[8]- Ibid.

نحو مكونات نظرية نيوتن، فالحقيقة المدهشة هو أن سميث وثق أصل العلم في بحثه عن علم الفلك، ليس من أجل الفضول البشري بل للرغبة البسيطة في إضفاء الإعجاب والمفاجأة، فقد كانت مقاييسه في الحكم على الأفكار العلمية في الغالب ذات طابع جمالي أكثر منها أفكارا معرفية. أكد سميث على ميزة القابلية للشرح في تناوله مختلف الظواهر عن طريق مبدأ وحيد مألوف كالجاذبية، وهناك كثير من المحافظة لديه تجاه كل من الثورتين الكوبرنيكية والنيوتونية، يحتمل أن تكون مستلهمة من النزعة التقليدية عند هيوم، وهذا معناه أن سميث يرفض أن تعتبر الميكانيكا النيوتونية تمثيلا للحقيقة، في مخالفة هادئة للنظرة العامة في زمانه[9].

وسواء كان آدم سميث متبنيا للميكانيكا النيوتونية في التحليل الاقتصادي أم لا، فإن التيار الأساسي في علم الاقتصاد حسم أمره في تبني هذه الفلسفة وفي نسبتها لآدم سميث في آن واحد، وأصبحت هي النظرة السائدة عند الاقتصاديين النيوكلاسيك المعبرة عن الأنطولوجية الميكانيكية النيوتونية عند آدم سميث وكل من جاء بعده. وهناك من يجادل بأن هذه النزعة لا تعبر عن الطبيعة العلمية للبحث الاقتصادي بقدر ما تكشف عن تحيزات اقتصاديي التيار النيوكلاسكي ورغبتهم في أن يصادروا تاريخ علم الاقتصاد السياسي لصالح نظرتهم المعرفية، وهم يفعلون ذلك لأنه في منتصف القرن الثامن عشر كان نيوتن هو البطل الفكري الأكثر تبجيلا من قبل كل الفلاسفة وليس فقط آدم سميث، فسميث لا يشكل استثناء في هذا الموقف المبجل لنيوتن. ومع ذلك، فإن المشاركة في الإعجاب لا تعني المشاركة في المنهج[10].

إن مراجعة متأنية للأدبيات الاقتصادية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر سوف تظهر أن جزءا مهما مما اعتبر حقائق اقتصادية كان في الواقع نتاجا للمُنظرين الذين يستخدمون تقنيات رمزية أو مجازية. وهناك احتفاء كبير بوالراس (Léon Walras) باعتباره مهندس نظام "التوازن"، وهو عند النيوكلاسيك يقف جنبا إلى جنب مع نيوتن مكتشف "نظام العالم". يقول ساموبلسون (Paul A. Samuelson): "نحن مضطرون للاتفاق مع تقييم شومبيتر (Joseph Schumpeter) لوالراس

---

[9] - Mark Blaug, op. cit, p 53.

[10] - Leonidas Montes, ''Smith and newton: some methodological issues concerning general economic equilibrium theory''. In Social Ontology and Modern Economics, edited by Stephen Pratten. New York and Oxon: Routledge, 2015, p 231.

باعتباره أعظم المنظرين – ليس لأنه استخدم الرياضيات، حيث أن الطرق المستخدمة هي في الحقيقة بسيطة – ولكن بسبب الأهمية الرئيسية لمفهوم التوازن العام نفسه. قد نقول عن "والراس" ما قاله لاغرانج (Lagrange) بسخرية في مدح نيوتن: "كان نيوتن بالتأكيد رجلا عبقريا بامتياز، لكن يجب أن نتفق على أنه كان أيضاً الأوفر حظاً: فالمرء لا يجد نظام العالم المراد تأسيسه إلا مرة واحدة! " وكان محظوظا لأن نظام العالم في عهده كان ما زال لم يكتشف"[11].

في المقابل، ترى ليونيدا مونتس (Leonidas Montes) أن النزعة النيوتونية في علم الاقتصاد ولدت مع النيوكلاسيكيين، وأنه ليس آدم سميث وحده الذي لم يكن نيوتونيا، بل إن نيوتن نفسه لم يكن نيوتونيا من حيث نظرته إلى الشعور الإنساني العام. وبشكل خاص لم يكن لدى آدم سميث النظرة الذرية الميكانيكية إلى العالم السائدة في تقاليد الاقتصاد النيوكلاسيكي ومن بعده التيار الأساسي الحديث، وحتى نيوتن لم يكن ليوافق على المنهجية البديهية الاستنتاجية المعززة والمعتمدة من قبل الفلسفة الميكانيكية في دراسة العلوم الاجتماعية وعلى رأسها علم الاقتصاد، فقد أصر اقتصاديو التيار الأساسي على قراءة ضيقة جدا لنيوتن. ونتيجة لذلك كبل منهج آدم سميث الفلسفي الغني والمعقد بغطاء تفسير وضعي متحيز بالكامل للمنهج النيوتوني الفيزيائي الميكانيكي[12].

إن مساهمة نيوتن يمكن أن ينظر إليها من جانبين: منهجه ونتائجه. وقد تم الخلط بين هذين الجانبين من طرف الاقتصاديين النيوكلاسيك واقتصاديي التيار الأساسي الحديث، فمنهج نيوتن هو مزيج بين التحليل والتركيب. أما اكتشافه فهو نظام لعلم الميكانيكا في ظل ظروف معينة– هي فقط شروط النظام المغلق– حيث يؤدي انتظام الأحداث إلى تسهيل استعمال الرياضيات. وقد فسر اقتصاديو التيار النيوكلاسيكي والتيار الأساسي الحديث بشكل خاطئ حالة واحدة من نتائج نيوتن على أنها منهج عام اعتمده نيوتن لتفسير العالم، متبعين في ذلك تقاليد المفكرين التنويريين الفرنسيين. كما ركزوا على نتائج نيوتن فيما يتعلق بنظام مغلق من انتاج انتظام الأحداث والاعتماد على منهجية بدهية–استنتاجية ضيقة لأنهم لاحظوا بأن هذا الأخير يساعد على أساليب النمذجة الرياضية، لما افترضوا أن الاعتماد

---

[11] - Paul A. Samuelson, ''Economic Theory and Mathematics-An Appraisal'', The American Economic Review, Vol. 42, No. 2, Papers and Proceedings of the Sixty-fourth Annual Meeting of the American Economic Association (May, 1952), p

[12] - Leonidas Montes, op.cit, p 232.

على الرياضيات يمثل التوجيه المنهجي النيوتوني ذي الطبيعة البدهية (a priori methodological orientation)[13].

في الواقع لم يكن هذا التفكير صحيحا حتى بالنسبة إلى الفيزياء النيوتونية نفسها، لأن منهج نيوتن كان يجمع بين التحليل والتركيب، فالتحليل هو البحث عن الأسباب الكامنة وراء الظواهر والتركيب هو محولة إيجاد قانون ينظمها. هذا هو المنهج الحقيقي لنيوتن، وهو المفهوم الفلسفي الذي اعتمده سميث. وبالتالي، فإن منهج التيار السائد لا ينتسب لا إلى سميث ولا إلى نيوتن، بل هو منهج استخدم في حالة خاصة محددة من نتائج نيوتن الفيزيائية، ثم تم إضفاء الصبغة العالمية عليه بشكل متحيز وخاطئ.

وفي البحث عن الأسباب التي دفعت الاقتصاديين إلى مثل هذا التحيز ينبغي ألا نهمل ضغوط العصر الذي ولد فيه علم الاقتصاد وهو عصر التنوير الغربي، ومن السمات المميزة لفكر التنوير بشكل عام هو الثقة المفرطة في قدرة العقل البشري على فهم الواقع، وقد جسدت فيزياء نيوتن بالنسبة لمفكري عصر التنوير انتصار القدرة الفكرية البشرية على الطبيعة، وربما كانت مقولة ألكسندر بوب (Alexander Pope) عن نيوتن تعبيرا واضحا لعن هذا الاعتقاد: " الطبيعة وقوانين الطبيعة توحي في الليل: قال الله، دعوا نيوتن يكون! فكان كل شيء نورا"

Nature and Nature's laws lay hid in night

God said let Newton be! And all was light[14].

ومع ذلك، فخلال العقود القليلة الماضية، تغيرت الصورة التي يستديمها الاقتصاديون المتحمسون لنيوتن باعتباره أبا لعصر العقل، وتبدل فهم طبيعة الفلسفة النيوتونية عند كثير من الاقتصاديين. وكان جون ماينارد كينز (John Maynard Keynes) من أولئك الذين تحدوا الصورة الموروثة والممجدة

---

[13] - Ibid, 233

[14] - Byron Kaldis, **Encyclopedia of Philosophy and the Social Sciences**. Thousand *Oaks, California:* SAGE Publications Ltd, 2013, P 669.

عن نيوتن في سيرته الذاتية "نيوتن الرجل"، كان هذا المقال بمثابة كسر للنزعة النيوتونية التي تلبس بها علم الاقتصاد، وإظهار للجانب الإنساني في شخصية نيوتن وفي تفكيره[15].

تولدت الصورة الميكانيكية التي اتخذت تسمية " النيوتونية" (Newtonianism) خلال القرن الثامن عشر، واعتقد الاقتصاديون على نطاق واسع أن نيوتن هو الذي قام بتوليفها باستلهام العقلانية الرياضية التي وضعها ديكارت، ومزجها بالتراث التجريبي الذي راج في بريطانيا بعد فرانسيس باكون (Francis Bacon)، غير أن المقصود بالنيوتونية عند الاقتصاديين هو أمر إشكالي في حد ذاته، فقد يكون ببساطة مجرد رجع صدى لكلمات نيوتن التي استخدمها في كتاباته تقمصها الاقتصاديون لتدل على منهجه. ومع ذلك فإن هذا الاستعمال لا يكشف عن شيء من مضمون هذا المصطلح. يمكن لمصطلح النيوتونية من ناحية أخرى أن يشير إلى التوظيف النفعي لمنهج نيوتن، وهذا التفسير هو الذي يبشر به اقتصاديو التيار الأساسي الحديث. أخيرا، فإن لفظ النيوتونية يمكن أن يشير إلى واحدة من الأساليب الرياضية المستخدمة من قبل العديد من أتباع نيوتن في مختلف العلوم وليس في الفيزياء فقط، وهذا التناول الأخير هو الأقرب إلى ما يتداوله الاقتصاديون الكميون في الوقت الحاضر"[16].

يتهم الاقتصاديون اليوم بمرض نفسي يسمى "حسد الفيزياء" (Physics Envy) أو العلموية (Scientism) حسب تعبير هايك (Friedrich Hayek)، لكن مارك بلوغ (Mark Blaug) رأى بأن الأقرب إلى الصواب القول بأن الاقتصاديين يعانون من حسد الرياضيات[17]. فقد أصبح الاقتصاديون يحلقون بين الفيزياء والرياضيات أو بين نيوتن وديكارت بشكل فيه الكثير من المبالغة في السنوات الأخيرة، وهذا ما عبر عنه دونالد ماكلوسكي (Donald Mc-Closkey) حين قال:

"من كل مكان خارج علم الاقتصاد، باستثناء قسم الرياضيات، سوف يبدو أمرا غريبا أن نأخذ البراهين على وجود التوازن التنافسي كأمثلة مجردة، إنهم لا يدَّعون إظهار أن اقتصادا فعليا هو في حالة توازن، أو أن توازن اقتصاد قائم هو أمر مرغوب فيه. المشكلة المحلولة على السبورة بهذه الطريقة أكثر أو أقل غموضا منذ تأكيد آدم

---

[15] - John Maynard Keynes, **The Collected Writings of John Maynard Keynes: Newton the Man**, edited by Elizabeth Johnson, Donald Moggridge. Cambridge: Royal Economic Society, Volume 10, 1978, pp 363-374.

[16] - Sir Hermann Bondi, ''Newton and the twentieth century: a personal view''. In in John Fauvel, et al, **Let Newton be!** Oxford: Oxford University Press, 1988, p245.

[17] - Mark Blaug, op. cit, p 167.

سميث بأن الرأسمالية جيدة وأنها تنظم نفسها ذاتيا. لكن الأدلة على الوجود لا تثبت ولا تدحض زعم سميث. إنها تظهر أن بعض المعادلات التي تصف اقتصاد السبورة اليقيني لها حل، لكنها لا تعطي حلا للمشكلة على السبورة، وأقل من ذلك بكثير لا توفر أي حل للاقتصاد القائم في الواقع. وبالفعل فقد تم صياغة المشكلة بمثل هذه العبارات العامة بأنه لا يوجد حل خاص من الممكن أن يتوقع حتى بالنسبة لاقتصاد اللعبة على السبورة"[18].

المطلب الثاني: المجاز العضوي الداروييني

يفترض النموذج العضوي –الذي يستند على الاستعارة العضوية الأساسية في الوعي المعرفي الغربي– أن العالم مترابط الأوصال كالكائن الحي، ولهذا فهو في حركة دائمة، وأن المبدأ الواحد الذي يسري في الكون ويحركه هو مبدأ عضوي كامن فيه. إن التطور الداروييني ليس نوعا مختلفا منطقيا من الناحية النظرية عن الميكانيكا النيوتونية أونسبية أينشتاين، وكانت النظرية التطورية لداروين (Darwin's theory of evolution)، ترمي إلى تفسير كيف أن الأشكال البيولوجية عالية التخصص تتطور من أشكال أقل تخصصا، من خلال عمليات الانتقاء الطبيعي التي تعمل على تعظيم القدرة على التناسل. والمشهور أن نظرية داروين في الاصطفاء الطبيعي قد دعمت علم الاقتصاد بالمبرر النظري المادي للمفهوم الجديد "للعدالة الاجتماعية العلمية" من خلال معالجتها كمبادئ للأخلاق العالمية، رغم أن داروين نفسه يقر في مقدمة كتابه "أصل الأنواع" بأن قانون الصراع من أجل البقاء الذي لاحظه في عالم الطبيعة الحيواني والنباتي أقره الاقتصاديون الكلاسيكيون قبله في عالم الإنسان، يقول داروين: " إنه مذهب مالتس المطبق على كامل مملكة الحيوان والنبات. لأن كثيرا من أفراد الأنواع المختلفة ولدت بعدد أكثر مما يمكنها من البقاء، وكنتيجة لذلك يتكرر وقوع التناحر بين العضويات من أجل الوجود، ويتبع هذا السبيل كل الأحياء، وأي تغير يحدث لآحاد تلك الأنواع وإن يكن ضئيلا، فهو مفيد له تحت الظروف المتغيرة والمعقدة، ليأخذ حظا أوفر من البقاء، ويكون بذلك قد انتخب طبيعيا. وعن طريق المبادئ الصارمة للوراثة، فإن أي صنف يختار سوف يجنح إلى التكاثر وفق شكله المعدل الجديد"[19].

أدت النزعة الداروينية إلى تعميم منطق الصرامة المادي من العالم الصامت إلى العالم الحي، فنتج عن هذا إزاحة تامة للعبء الأخلاقي عن الاقتصاديين تجاه قضايا تكافؤ الفرص والتوزيع العادل للدخل

---

[18] - Donald N. McCloskey, ''Economics Science: A search Through the Hyperspace of Assumptions'', *Methodus*, June 1991, p8.

[19] - Charles Darwin, **On the Origin of Species.** New York: Oxford University Press Inc, 2008, p.7

والثروة، إذ أصبح الأمر الواقع هو العدالة مهما بدا لنا خلاف ذلك، ما دام كل شيء يسري وفق القوانين الطبيعية لآلة السوق، وعلى الجميع الرضا بحكم الطبيعة فهي التي تختار من يستحق المكافأة ومن يستحق الحرمان.

كان مالتس (Thomas Robert Malthus) داروينيا قبل داروين، نقرأ ذلك بوضوح في كتابه "بحث في مبادئ السكان" (An Essay on the Principle of Population) إذ يؤكد:

"أولئك الذين ولدوا بعد تقاسم الملكيات، إنما يقدمون على عالم تمت وانتهت ملكيته، فإذا لم يتم دعمهم من آباءهم، إذا أخذنا أسرة كبيرة جدا، و لم يتمكنوا من منحهم ما يكفي لدعمهم، فماذا عساهم يفعلون في عالم كل شيء فيه مملوك للغير؟ يمكننا تصور الآثار المدمرة التي من شأنها أن تحدث إذا حق لأي شخص الحصول على حصة مساوية لحصص الآخرين من أراضيهم، إذا لم تكفه حصته التي تخصه من أراضي أسرته. إنه لا يحق بأي حال من الأحوال أن يطلب جزءا من فائض إنتاج الآخرين باسم واجب العدالة، ويظهر من خلال القوانين الصارمة للطبيعة، بأن بعض البشر لابد أن يعانوا من الفقر، وهؤلاء هم سيئوا الحض من الناس الذين خسروا اللعبة في اليانصيب الكبير للحياة لأن عدد الطالبين للموارد يتجاوز المعروض منه"[20].

تحول داروين إلى رأس حربة في نوع جديد من أخلاق الأخوة والتضامن العالميين، وأصبح الداروينيون الاجتماعيون من الاقتصاديين والأنصار المتحمسون للتنافسية المفترسة المستمدة من قانون "الناب والمخلب" (Tooth and Nail) هم حواريو السيد داروين[21]. إن عالم داروين عالم مستمر ومغلق لا ثغرات فيه، ولا فراغات ولا مسافات، فكل حلقة تؤدي إلى التي تليها تماما كما هو الحال مع عالم نيوتن، فكل عجلة تحرك العجلة التي بجوارها بحيث يصح وصف داروين بأنه نيوتن العلوم البيولوجية، حيث تؤدي اليرقة إلى القرد والقرد إلى الإنسان بطريقة آلية تماما كما تتحرك الأجسام تحت تأثير قانون الجاذبية[22].

---

[20] - Malthus, Thomas. **An Essay on the Principle of Population**. Electronic Scholarly Publishing Project, 1998, pp 63-64

[21] - Pierre-Andre Taguieff, The Force of Prejudice on Racism and its Doubles, Translated by Hassan Melehy. University of Minnesota Press, 2001.p53.

[22] - عبد الوهاب المسيري. **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. دمشق: دار الفكر، 2002. ص98.

إن محاولة تقريب الإنسان من الآلة تارة ومن الحيوان تارة أخرى في النموذج المنهجي الكامن عند الاقتصاديين، هو استعارات مجازية متحيزة خلقتها منظومة الحداثة الغربية وفق صورة النموذج الفرضي الاستنتاجي للعلم وليست حقيقة علمية يثبتها التجريب. فقد عجز داروين عن إيجاد تفسير علمي لكيفية الانتقال من القرد إلى الإنسان وسمى تلك الحلقة المفقودة طفرة (Sport) ثم بنى داروين أطروحته دون أي دليل مادي، ودون العثور على الحلقة المفقودة. ومع ذلك، يمكن القول بأن القانون العام للتفسير العلمي بمخرجاته الطبيعية لا يمكنه أن يستوعب بسهولة نظرية داروين في التطور.[23]

ذهب دعاة الداروينية الاجتماعية إلى أن فرضية داروين نظرية وحقيقة علمية، ثم نقلوا هذه الفرضية من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان، فوظفت الداروينية الاجتماعية في التبرير المتحيز لأفكار القوة والهيمنة، وتبرير التفاوت بين الطبقات في المجتمع الواحد، وفي تبرير المشروع الامبريالي الغربي على صعيد العالم بأسره. فالفقراء في المجتمعات الغربية وشعوب آسيا وإفريقية والضعفاء على وجه العموم، يتحملون مسؤولية فقرهم لوحدهم، لأنهم أثبتوا أن مقدرتهم على البقاء ليست مرتفعة، لذا فهم يستحقون الفناء أو على الأقل الخضوع للأثرياء ولشعوب الغرب الأقوى والأصلح[24].

[23] - Mark Blaug, op. cit, pp 8-9.

[24] - عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، مرجع سابق، ص99.